

0. 339

الإسلام اليوم

المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة

- مراكز الحضارة الإسلامية
- الزراعة والبيطرة عند المسلمين
- المؤتمر التأسيسي للإيسيسكو ...

العدد 1 / السنة 1

جمادى 2 / 1403

أبريل 1983

تدويرية تصدرها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - الإيسيسكو

الأصول التاريخية للفكر العربي الاسلامي

د. توفيق سلطان البوزيكي*

إن الحركة الفكرية تقوم على العقل والتأمل والتفكير ، وإن النشاط الفكري يقوم على انتقال الافكار الذي قد لا يستلزم بالضرورة انتقال الاشخاص والعلماء ، فقد تنتقل الافكار بالمدونات والكتب ، أو بانتقال وسطاء من الأشخاص ، فتمتد فكرة ما إلى مناطق بعيدة لم يصل إليها مبدع الفكرة .

ولا ريب في أن خير وسيلة لمعرفة الأفكار هو المدونات والكتب غير أن قلة الكتب قبل انتشار الورق ، واعتماد الحركة الفكرية على الرواية والسماع أفقدنا كثيرا من التفاصيل المهمة عن تطور هذه الحركة والاداة الأساسية في الفكر هي : اللغة إذ بها يعبر المرء عن أفكاره وينشرها بين الناس ، ولولا اللغة لما استطاع الانسان أن يفكر ، ولا استطاع معرفة أفكار غيره ، ومع ان لكل قوم لغة خاصة بهم ، فإن اللغة انما تكتسب بالتعلم والمران ، وقد يستطيع المرء تعلم لغة قوم غير قومه ، والتفكير بها والتأليف فيها ، وقد تترجم الأفكار وتنقل من لغتها الأصلية إلى لغات أخرى ، وعلى هذا ما كل ما كتب بالاغريقية يرجع إلى مفكرين اغريقيين الأصل ، فاللغة الواحدة قد يكتب بها اناس من أصول متعددة . غير أن انتشار لغة ما وتطورها لتصبح لغة العلم العامة يعطي دلالة على ميزات تلك اللغة وعلى الدور الرئيسي لأهلها في تطور الحركة الفكرية⁽¹⁾ .

ولا ريب في أن اللغة العربية هي التي يتكلم بها العرب ممن أقام في شبه الجزيرة العربية أو خارجها ، وهي أبرز ما يميز العرب ، وأقوى أساس لوحدهم وروابطهم الفكرية .

(هـ) مدير ادارة البرامج الثقافية والوثائق والاعلام بمكتب التربية العربي لدول الخليج .
(1) صالح العلي : مراكز الحركة الفكرية في صدر الاسلام : بحث مستقل من مجلة المجمع العلمي العراقي ج 3 م 31 ص 2 ، تموز 1980م .

واللغة العربية تتميز بمرونتها وقابليتها على الاشتقاق وبغنى مفرداتها بالتعبير المتعلقة بمختلف الظواهر وجوانب الحياة ، وتشير إلى مدى ونطاق معارفهم العقلية من حيث ما تستخدم فيه اللغة من شعر ومثل وقصص ونثر.

واللغة لم يأخذها الخلف عن السلف كاملة انما يخلق الناس في أول أمرهم ألفاظا على قدر حاجاتهم ، فإذا ظهرت اشياء جديدة خلقوا لها ألفاظا جديدة وإذا اندثرت أشياء قد يندثر ألفاظها وهكذا فاللغة في حياة وموت مستمرين ، وكذلك الاشتقاقات والتعبيرات فهي أيضا تنمو وترتقي تبعا لرفي الأمة وهذا ما ليس فيه مجال للشك⁽²⁾.

اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم الذي نزل (بلسان عربي مبين) (قرآنا عربيا غير ذي عوج). والقرآن الكريم يظهر بما لا يقبل الجدل مكانة اللغة العربية في الحياة العقلية عند العرب ، وفيما تصور من حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والعقلية ، وهي غنية بمفرداتها مما يحملنا على الاعتراف بأن معجم اللغة العربية لم يكن غني بكلماته فحسب بل بقواعد اللغة وصرفها أيضا ، وكذلك مما لا شك فيه أنها غنية باشتقاقها وتصريف كلماتها فوضع صيغة فعلية لكل زمان ، والمشتقات العديدة للدلالة على أنواع مختلفة من المعاني والأشخاص وللغة دلالة اخرى على الحياة العقلية من حيث ما تستخدم فيه اللغة من شعر ومثل وقصص⁽³⁾.

وأصبحت اللغة العربية لغة العلم والأدب ولغة الفلسفة بالاضافة إلى لغة الدين ، وازمحت بجانها كل لغات الشعوب المنضوية تحت راية الدولة العربية الاسلامية ، فالسريانية التي ترجمت اليها كتب اليونان أخذت تتدهور بعد ان نقل ما فيها إلى اللغة العربية ، والفرس في ذلك العصر أصبحت لغتهم العلمية والأدبية هي اللغة العربية ان القوا أو شعروا أو كتبوا بالعربية ، وحياة اللغة الفارسية انما كانت في أوساط الديانة المجوسية⁽⁴⁾ وكذلك بالنسبة للغات الأخرى من رومية وقبطية في الشام ومصر.

ولئن كسبت اللغة العربية من ذلك انها أصبحت في تأليفها وأدبها وعلومها نتاج كل هذه الأمم ، إلا أن الأعاجم قد افسدوا اللغة اللسانية بما أدخلوا من لحن ، وبدأ اللحن ينتشر في اللغة منذ دخول الأعاجم في الاسلام ، وكثر منذ العصر العباسي ، وقد بدأ يكون للناس لغتين : لغة علمية هي التي يسميها الجاحظ لغة المولدين والبلديين⁽⁵⁾ وهذه لها

(2) أحمد أمين : فجر الاسلام ص 64

(3) المصدر السابق ص 68 .

(4) أحمد أمين : ضحى الاسلام ج 1 ص 293 .

(5) الجاحظ : البيان والتبيين ج 1 ص 116

الفاظ غير منتقاة ، وتتسامح في الاعراب ، وتميل إلى اسكان أواخر الكلمات (6) ، ولغة الطبقة الراقية المتعلمة والمتقفة ، وهذه لغة معربة متميزة وهي لغة الكتابة .

وصار لزاما على علماء اللغة والنحو أن لا يأخذوا الا من سكان البادية لانهم رأوا الحضرة قد فسد بالاختلاط ، بل كانوا لا يأخذون عن البدوي الا إذا لم يفسده الحضرة .

فكان العلماء والأدباء يرحلون إلى البادية في طلب اللغة والأدب ، وظل عرب البادية مصدرا للغة والأدب منذ العصر العباسي الأول ، وقد عد ابن النديم في الفهرست عددا منهم ، أبو زيد الأنصاري ، وأبو عمرو بن العلاء والأصمعي ، والكسائي (7) فظهرت معاجم اللغة التي جمعت فيها كل ما روي عن الفاظ وتأولت الخطأ وصححت الغلط ، وقد وجد العلماء الأولون في تمحيص ما جمع من ألفاظ اللغة . فقد كان القرآن من أكبر البواعث على نشر اللغة العربية والعناية بها ، ولما دخل اللحن في العربية خاف المسلمون على القرآن ان يتسرب إليه اللحن فوضعوا النحو ، وأخذوه عن الأعراب مشافهة حتى يصلوا إلى قاعدة في الرفع والنصب والجرم والجر يضعونها ، وكانت حركة عنيقة ومجهود كبير توجب بتقيط القرآن نقطة أبي الأسود الدؤلي ، وبكتاب سيبويه وما كان يكون لولا القرآن (8) .

وقد اهتم علماء اللغة والأدب بلهجات العرب ، وكيف تنطق تميم وقريش لتفهم قراءات القرآن ، كما عنوا بالمعرب والأصيل لما في القرآن من معرب وأصيل (9) . ووجد العلماء بعد ذلك في البلاغة يضعون لها القواعد ويستنتجون القوانين تفهها لمواضع الاعجاز في القرآن وتدوقا لبلاغته . فكان العالم باللغة عالما بالنحو ، وان كان بعض العلماء أبرز في اللغة وبعضهم أبرز في النحو ، وكان العراق أسبق الامصار العربية إلى تدوين اللغة والنحو ، وكان من له الفضل في ذلك البصريون ثم الكوفيون ثم البغداديون . فالبصرة أول مدينة عنيق بالنحو واللغة وتدوينها واختراع القواعد لها ، قال ابن النديم (قدمنا البصريين أولا لأن علم العربية عنهم أخذ) وظلت مدرسة البصرة قائمة وحدها في النحو وما إليه إلى أن جاء أبو جعفر الرؤاسي ، فكان أول من ألف في النحو من الكوفيين ، وأول من أسس مدرسة الكوفة ، ودعمها تلميذاه الكسائي والفراء ، وكانا نظيري سيبويه رئيس البصريين .

(6) الأصفهاني : الأغاني ج 3 ص 177

(7) ابن النديم : الفهرست ص 43 وما بعدها

(8) ابن خلدون : المقدمة ص 480

(9) أحمد أمين : ضحى الاسلام ج 1 ص 311

وتاريخ النحو في منشئه غامض ، وقد ذكروا أن واضع النحو أبو الأسود الدؤلي وأن النحو لم يكن في العصور الأولى مفهوماً منه هذا المعنى الدقيق الذي نعرفه اليوم ، فإن أبا الأسود الدؤلي وضع النحو لضبط المصحف حتى لا تكون فتحة موضع كسرة ، ولا ضمة موضع فتحة ، فجاء بعد من أراد أن يفهم النحو على المعنى الدقيق ، فابتدع تقسيم الكلمة إلى اسم وفعل وحرف ، والاسم إلى ظاهر ومضمر ، وباب التعجب وباب ان⁽¹⁰⁾ وقال ابن حجر في الإصابة عنه ان (أول من نقط المصحف ووضع العربية أبو الأسود) ذلك حين اضطرب كلام العرب وسرى اللحن وتفشى فوضع باب الفاعل ، والمفعول ، والمضاف ، وحروف الجر والرفع والنصب والجرم .

وكان الخليل بن أحمد الفراهيدي له الفضل الأكبر في النحو ، فهو أول مبتكر للمعاجم العربية ، وهو أول مبتكر لوضع العروض ، وحصر كل اشعار العرب في مجوره ، وهو الذي اخترع علم الموسيقى العربية ، وجمع فيه أصناف النغم وهو الذي عمل النحو الذي نعرفه اليوم ، فلم يرض أن يؤلف فيه حرفاً أو يرسم فيه رسماً .. واكتفى في ذلك بما أوحى إلى سيبويه من علمه ولقنه من دقائق نظره ، ونتائج فكره ، فحمل سيبويه ذلك عنه وتقلده ، وألف فيه الكتاب الذي أعجز من تقدم قبله كما امتنع على من تأخر بعده⁽¹¹⁾ .

ولم يقتصر سيبويه في كتابه على أقوال الخليل بن أحمد الفراهيدي بل ذكر كثيراً من أقوال العلماء قبله ورتبها وبوبها وجمع ما استشهد به العلماء من شعر وما سمعه هو بنفسه⁽¹²⁾ . وكل ما ألف في النحو بعده فبني عليه ومستمد منه .

ومن الأصول التاريخية للحياة العقلية عند العرب قبل الاسلام (الشعر) وقدما قالوا : (إن الشعر ديوان العرب) يعنون بذلك أنه سجل أخلاقهم وعاداتهم وديانتهم وعقليتهم واستنتجوا منه أيامهم وحروبهم وقيمهم ومثلهم العليا .

والشعراء قبل الاسلام كانوا (هم أهل المعرفة) ويعنون بذلك أن طبقة الشعراء كانوا أعلم أهل زمانهم بما يتطلبه نوع معيشتهم كمعرفة الأنساب ومثالب القبيلة ومناقبها ، وبدليل ما صدر عنهم من شعر يدل على اعتداد الشعراء بأنفسهم من ناحية الرقي العقلي⁽¹³⁾ .

(10) المصدر نفسه : ج 2 ص 287

(11) انظر الزبيدي : مختصر كتاب الحين

(12) أحمد أمين : ضحى الاسلام ج 2 ص 291

(13) أحمد أمين : فجر الاسلام ص 70

وكان للامثال العربية دلالتها العقلية ، ومنها نستطيع أن نتفهم الدرجة التي وصلت اليها الأمة ونستطيع أن نعرف كثيرا من اخلاقها وعاداتها . وللأمثال من هذه الناحية ميزة على الشعر ، ذلك أن الشعر تعبير طبقة من الناس يعدون في مستوى أرقى من مستوى العامة ، فالشعراء يعبرون عن شؤون القبيلة التي ارتسمت في أذهانهم الراقية ، وهم يعبرون بألفاظ مصقولة صقلا يستوحى الشعر . اما الأمثال فكثيرا ما تنبع من أفراد الشعب نفسه وتعبّر عن عقلية العامة ، وهي بذلك عبّرت عن حياة العرب الاجتماعية والاقتصادية والفكرية ، وبهذا يكون العرب حقا أجادوا في هذا النوع من الأدب . لأنه يوافق مزاجهم العقلي وهو النظر الجزئي الوصفي لا الكلي الشامل ، ولأن المثل لا يستدعي احاطة بالعالم وشؤونه ولا يتطلب خيالا واسعا ولا بحثا عميقا انما يتطلب تجربة محلية في شأن من شؤون الحياة⁽¹⁴⁾ .

وكان للقصص عند العرب أيضا دلالة كبيرة على عقليتهم ، وهو باب كبير من أبواب أدبهم ، وتدور أغلبها على أمرين أولهما : حول حروبهم والتي تسمى (أيام العرب) التي وقعت قبل الاسلام كيوم (داحس والغبراء) ويوم (البنسوس) ويوم (حرب الفجار) أو بين العرب وأم أخرى كيوم (ذي قار) الذي انتصر فيه العرب على العجم .

كانت هذه القصص موضوع العرب في سمرهم قبل الاسلام وبعده ، وقد جمعت منها في العقد الفريد لابن عبد ربه .

وأما الأمر الثاني : الذي تدور عليه القصص عند العرب قبل الاسلام قصص الحب أو ما تسمى بـ (أحاديث الهوى)⁽¹⁵⁾ وهذه القصص كثيرة وردت في كتب الأدب العربي ، وكذلك ورد في قصة المنخل الشكري ، والمتجردة زوج النعمان ، وما قيل في ذلك من قصص وما روي من أشعار⁽¹⁶⁾ .

وهناك نوع من قصص العرب أخذوه من أم أخرى ، وصاغوه في قالب يتفق وذوقهم لأن العرب أثروا وتأثروا بمن حولهم من الأمم المجاورة .

إن انتشار اللغة العربية وتطورها في الدولة العربية الاسلامية يعطي دلالة على ميزان تلك اللغة ، وعلى الدور الرئيس لأهلها في تطور الحركة الفكرية العربية وكان لها أثرها الفعال في ظهور مراكز الحركة الفكرية ومنذ عصر صدر الاسلام .

(14) أحمد أمين : فجر الاسلام ص 80

(15) المصدر السابق ص 83

(16) الأصفهاني : الأغاني ج 18 ص 154

فإن الدولة التي كونها العرب المسلمون امتدت من أواسط اسيا حتى المحيط الأطلسي ، وان موجهيها من الخلفاء والقواد والولاة كانت لهم أفكار واضحة في توجيه الدولة ومسيرتها ، وان من أفكارهم الأساسية العمل على توحيد الدولة وضمان الحرية والأمن والرخاء فيها ، ونفذت خطوات جدية لاحتلال نظم موحدة محل النظم والاضاع المتباينة ، وبالرغم من تعدد مراكز الحركة الفكرية ، واختلاف بعض أحوالها واتجاهات دراساتها ، فإن عوامل التوحيد سيطرت على توجيه هذه المراكز ضمن هياكل عامة (17) .

إن المراكز الفكرية الرئيسية التي كانت عند ظهور الاسلام هي : الاسكندرية ، وانطاكيا ، وحران ، وجند سابور (18) وظهرت المراكز الفكرية العربية الاسلامية في البصرة والكوفة وبغداد وقد ذهب البعض إلى أن مراكز العلم انتقلت بعد الاسلام من الاسكندرية وانطاكية وحران حتى استقرت أخيرا في بغداد .

1 - الحياة الفكرية في صدر الاسلام

(ا) العلوم الاسلامية الدينية :

إن نزول القرآن الكريم ، ومجيئ الاسلام حدثا فاصلا في تاريخ العرب وتطورهم الفكري ، فقد أكد أهمية العلم والمعرفة ، وحض على الاستزادة منها ، ودعى الانسان إلى التعقل والتفكر وإلى التأمل في ظواهر الدنيا ، وقدم الاسلام نظرة كونية ذات سمات معينة مبنية على الوحدةانية ، وبذلك وضع اطارا عاما لآفاق الفكر وحدد هيكلا فكريا اسلاميا جديدا .

وفي غضون عشر سنوات من الدعوة إلى الاسلام استطاع الرسول نشر الاسلام في الجزيرة العربية حتى أصبحت كلها مسلمة . وخلق منها أمة واحدة في دولة موحدة . وفي عهد خلفائه حرروا الأراضي العربية خارج الجزيرة العربية وأفلحوا في مدة لا تزيد على ربع قرن من مد دولة الاسلام إلى نهر جيحون شرقا وإلى اطراف القفقاس شمالا وإلى تونس غربا ، وتابعت توسعها في العهد الأموي حتى أصبحت في نهاية القرن الأول الهجري تمتد إلى المحيط الأطلسي والبرانس غربا وإلى أطراف الصين شرقا ، وأصبحت هذه البلاد الواسعة مجموعة في دولة واحدة يقودها رئيس واحد هو الخليفة (19) .

(17) صالح العلي : مراكز الحركة الفكرية ص 4

(18) البوزيكي : التعريب في العصرين الأموي والعباسي ص 45 بحث مستقل من مجلة اداب الرافدين العدد السابع 1976

(19) العلي : مراكز الحركة الفكرية ص 17

وقد تطلب الوضع الجديد الذي حدث في رقعة الدولة وادارتها ومنذ خلافة عمر بن الخطاب إلى احداث قواعد جديدة للعرب ، وجعلت الادارة مركزية لضمان الاستقرار السياسي للدولة ، وادى هذا الاستقرار إلى نشاط الحركة الفكرية طوال العصور الاسلامية خاصة في الأمصار والعواصم التي توطنها العرب حيث سادت اللغة العربية والدين الاسلامي والثقافة العربية الاسلامية وكان للمدينة مكانة خاصة في الحركة الفكرية في صدر الاسلام ففيها اكتمل نزول القرآن ، واستقرت واكتملت تعاليم الاسلام ، وفيها تأسست دولة الاسلام ، وأهلها صحابة الرسول الذين رافقوه وناصروه وقاتلوا معه دفاعا عن الاسلام ، وقد ساعدتهم طول صحبتهم على تفهم مبادئ الاسلام ، وقد اقتفى خلفاؤه اثاره ، فثبتوا على الولاء للاسلام واهتموا بتثبيت كيان الدولة التي مركزها مدينتهم⁽²⁰⁾ .

أما الأماكن التي لم يستوطنها العرب فلم يعرف فيها نشاط فكري كبير بالرغم من الحرية الواسعة التي نشرها العرب والتسامح الكبير الذي أبدوه تجاه الشعوب التي حررها العرب . ان جمود الحركة الفكرية في المراكز التي لم يستوطنها العرب لا يمكن ارجاعه إلى أية محاولة قام بها العرب لاضطهاد النتاج الفكري لغير العربية ، والدليل على ذلك بقاء عدد من مراكز الدراسات باللغات المحلية كجنديسابور وحران والعدد الكبير من الأديرة والكنائس ، بالرغم من أن هذه المراكز تدهورت تدهورا ملحوظا وتحول أطباء جنديسابور وعلماء النصراني وأهل الذمة إلى الكتابة والتأليف بالعربية التي دونوا فيها أروع انتاجهم الفكري⁽²¹⁾ .

إن الحركة الفكرية تركزت في صدر الاسلام في امصار محدودة اشتركت بخصائص ميزتها عن غيرها ، وهذه الخصائص هي أن الغالبية العظمى السائدة من سكانها هم العرب من مختلف القبائل العربية ، وانهم كانوا جميعا مسلمين موحدين ، يضاف إلى ذلك أن هذه الامصار كانت مراكز للادارة والقيادة والولاية⁽²²⁾ .

ونشطت الحركة الفكرية أولا في المدينة ودمشق والبصرة والكوفة ثم في بغداد والفسطاط والقروان ، وفي أي من الأمصار التي أنشأها العرب واتخذوها مقرا لجيوشهم ومراكز لادارتهم . ولا ريب في أن مركز الحركة الفكرية في هذه الأمصار أدى إلى أن

(20) العلي : مراكز الحركة الفكرية ص 22

(21) المصدر السابق ص 19

(22) المصدر السابق ص 21

تنصب عنايتها بالدرجة الأولى على القضايا التي تحظى باهتمام العرب . بينما نرى جمود الحركة الفكرية في الأماكن الاعجمية الخالصة ، ونشاطها في الأماكن التي ساد فيها العرب لغتهم ودينهم تكون دليلاً بنقض مدعي بعض من زعم أن حملة العلم في الاسلام من الأعاجم ، وان الموالي (وهم من المسلمين من غير العرب) قام عليهم العلم وازدهاره ، إذ لو صح ذلك لكان حرياً أن يزدهر في الأماكن التي يسود فيها الأعاجم ، وان يكتب بغير العربية ، علماً بان الدراسة الدقيقة لهوية العلماء الأولين واهتماماتهم تظهر ان أغلبهم من العرب ، وانهم عنوا بدراسة ما اهتم به العرب من جوانب فكرية ، وان دور الموالي ثانوي في كميته وفي نوعيته⁽²³⁾ .

وقد لعبت العلوم الاسلامية دوراً كبيراً في الحياة الفكرية في صدر الاسلام وأهمها :

القرآن :

لما كان القرآن الكريم هو المصدر الأول للاسلام وشراعه ، فقد اهتم الرسول والخلفاء الراشدون بنشره في الناس ، وتعليمهم قراءته وبذلك عمت قراءة القرآن الامصار كافة .

وكانت أول قضية فكرية خطيرة هي ضبط قراءة القرآن وتقرير مصحفه غير أن جمع الخليفة عثمان بن عفان القرآن ، وثبتت قراءته وتعميم مصحفه لم ينه دراسة القرآن ، فقد استمرت عناية الناس به والتعمق في دراسته من حيث مفرداته ومعانيه وأسلوبه وأفكاره ، حتى صار الناس يفهمونه كما يقول ابن خلدون (إن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغاتهم فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه)⁽²⁴⁾ ومع ذلك ففي القرآن آيات كثيرة لا يكفي في تفهمها معرفة ألفاظ اللغة وأساليبها مثل (والعاديات ضبحاً) و(والذاريات ذروا) و(والفجر وليال عشر) إلى كثير من أمثال ذلك ، وفي القرآن اشارات كثيرة إلى أشياء في التوراة والانجيل ورد عليهم ليس يكفي في فهمها معرفة اللغة⁽²⁵⁾ والله تعالى يقول : (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم) .

ومما لاشك فيه أن التعاليم التي جاء بها الاسلام رفعت المستوى العقلي للعرب واستطاع العربي بهذه التعاليم أن يرقى إلى فهم اله واحد لا مادة له ، وكان لعقيدة اليوم الاخر ،

(23) العلي : مراكز الحركة الفكرية ص 20

(24) ابن خلدون : المقدمة ص 366

(25) أحمد أمين : فجر الاسلام ص 242

والجنة والنار أثر عظيم في بيع كثير منهم نفوسهم في سبيل نشر التعاليم الاسلامية (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) .

وكان لتعاليم القرآن أثر كبير في تغيير الكثير من المفاهيم والقيم والأخلاق وقد عبر جعفر بن أبي طالب عن التغيير الكبير بين نظرة العرب إلى الكون وإلى الحياة وإلى الفكر في عصور ما قبل وفي عصر ظهور الاسلام للنجاشي ملك الحبشة في هجرته مع المسلمين إليها قائلا (كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا عرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، واداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدقناه وآمنا به ...) (26) .

فجاء الاسلام بثورة شاملة رفض العصبية القبلية ، وما تنطوي عليه من مفاهيم وآتى بفكرة الأمة بدل القبيلة ، وأكد الوحدة بدل التعدد والتجزئة (وهذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) ودعا إلى الجهاد في سبيل العقيدة ورفض الغزو ، وجاء بمفهوم القانون أو (الشريعة) ونبذ العرف القبلي ، وهاجم الاستغلال والجشع المادي وأكد على العدالة الاجتماعية (27) .

ان الذي أخصب الفكر العربي الاسلامي هو (القرآن) وان نزوله يشكل حدثا خطيرا في تاريخ العرب بشكل خاص والأمم بشكل عام حيث جاء بنظرية كونية سماوية وحد العرب في أمة واحدة لها رسالتها وخصائصها من لغة ودين وعادات ، وإن أحد أسباب انتشار الاسلام وضوح مبادئه التي تؤكد على العدل والمساواة والاحسان وتهذيب النفوس والتسامح (28) .

ومن الآثار الفكرية للقرآن على المجتمع العربي ظهور القراء الذي شكلوا طبقة متميزة

(26) انظر سيرة ابن هشام

(27) الدوري : مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ص 14

(28) البوزيكي : دراسات في النظم العربية الاسلامية ص 209

فكريا واجتماعيا ، ولعبوا دورا كبيرا في الحياة الفكرية في الاسلام في عصوره الأولى . وكان للعلوم القرآنية التي دارت حول هذا الذكر الحكيم ، وخدمت أغراضه وغاياته ، وعبرت عن كلياته وجزيئاته ، وصورت آفاق فلسفته الروحية الأصيلة في الكون والحياة والانسان ، إذ دفعت أئمة الاسلام يبذلون في تأصيل أصولها ، ووضع قواعدها ، ورأيانهم ينشئون من أجلها المدارس الفكرية ، ويضيفون فيها الكتب العلمية ، ويقىمون على أساسها المذاهب الفلسفية والفقهية والروحية .

وقد اتخذ الفقهاء من القرآن دستورا يستنبطون منه أحكامهم ويبتدون به في حياتهم ، وأصبحت بمثابة أساس لحركة تشريعية واسعة ، ونتج عن اهتمام الفقهاء بدراسة القرآن وفهم معانيه إلى نشوء علم التفسير بعد الانتشار الواسع للاسلام بين أقوام غير عربية ، وضرورة تفسير محتويات القرآن لتسهيل فهمه باعتباره المصدر الأساس للديانة الاسلامية .

التفسير :

نزل القرآن بلغة العرب وعلى أساليب العرب في كلامهم ، فألفاظه عربية فيه الحقيقة وفيه المجاز وفيه الكناية إلى غير ذلك ، على نمط العرب في حقيقتهم ومجازهم ، وهذا طبيعي لأنه أتى يدعو العرب أولا إلى الاسلام ، فلا بد أن يكون بلغة يفهمونها (وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليعلمهم) فكان النبي أول شارح للكتاب يبين للناس ما نزل ويؤكد ذلك ما ورد في القرآن (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون) وقوله تعالى : (وما أنزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذين اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) والتبيان هنا للتوضيح والتفسير . فالرسول لم يتعرض لتفسير جميع آيات القرآن وانما كان يبين لاصحابه معاني القرآن وأهدافه وما يسأل عنه ، ومع هذا فلم يكن القرآن جميعه يستطيعون الصحابة أن يفهموه وليس بصحيح ما يقوله ابن خلدون من (أن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغاتهم فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه)⁽²⁹⁾ لأن نزول القرآن بلغة العرب لا يقتضي أن العرب كلهم يفهمونه في مفرداته وتراكيبه ، لأن فهم الكتاب لا يتطلب اللغة وحدها وانما يتطلب درجة عقلية خاصة تتفق ودرجة الكتاب في رقيه ، انما كانوا يختلفون في مقدار فهمه حسب رقيهم العقلي ، بل ان ألفاظ القرآن نفسها لم يكن العرب كلهم يفهمون معناها ، ولم يدع أحد ان كل فرد في أمة يعرف جميع ألفاظ لغتها ، وحسبنا على ذلك ما روى

مالك بن أنس أن رجلاً سأل عمر بن الخطاب عن قوله تعالى (وفاكهة وأبا) ما الأب؟ فقال عمر: (نهينا عن التكلف والتعمق) ونحن نعلم قدر عمر في الدين والعلم فكيف بغيره من الصحابة⁽³⁰⁾ العرب والشعوب غير العربية التي دانت بالاسلام.

وفي القرآن آيات كثيرة محكمة واضحة المعنى، وهي التي تتعلق بأصول الدين والأحكام وخاصة منها الآيات المكية التي تدعو إلى الايمان وهذا النوع من الآيات يستطيع فهمه جمهور الناس، ولاسيما من كانوا عرباً بسليقتهم، وفي القرآن آيات غامضة هي التي سميت متشابهة صعب فهمها ولم يصل إلى معرفتها إلا الصحابة الذين كانوا أقدر الناس على فهم القرآن لأنه نزل بلغتهم ولأنهم شاهدوا الظروف التي نزل فيها القرآن. كما أن هناك بعض الآيات وفواتح السور لم يستطع المفسرون تفسيرها مثل (كهيعص، حم، عسق، المص، ألم...) ⁽³¹⁾. ومع هذا فقد اختلفوا في الفهم على حسب اختلافهم في أدوات الفهم من خلال معرفتهم بأدب عصر قبل الاسلام، وبغريب اللغة، ومنهم من كان دون ذلك، وكذلك منهم من كان يلازم النبي وعرف منه أسباب التنزيل، وكذلك اختلافهم في معرفة عادات العرب في أقوالهم وأفعالهم كل هذه الأمور وما تبعها من دخول الذميين من غير العرب في الاسلام، فاقتضت الضرورة إلى ايجاد تفسير للقرآن يسمى (التفسير المنقول) ويعنون به تفسيراً نقل عن النبي أو الصحابة ويضيف بعضهم كلام التابعين ⁽³²⁾ أي أن الذي يريد أن يفسر القرآن فعليه أن يطلب المعنى من القرآن فإن لم يجده فن السنة وان لم يجده في أقوال الصحابة.. وأجل التفاسير بالمأثور هو تفسير ابن جرير الطبري ويسمى (جامع البيان في تفسير القرآن) ومن خصائصه انه عرض فيه لاقوال الصحابة والتابعين مع تحرير اسنادها وترجيح بعضها على بعض، واستنباط الكثير من الأحكام، وذكر بعض وجوه الاعراب التي تزيد المعنى وضوحاً ⁽³³⁾.

لقد تطرق الوضع إلى هذا النوع من التفسير، وأهم ما يدل على دخول الوضع نجد في الآية الواحدة تفسيرين متناقضين لا يمكن أن يصدر عن رسول الله، وقد انكر بعض العلماء هذا النوع من التفسير، أي أنهم أنكروا صحة ورود ما يروونه في هذا التناقض، ومما يدل على عدم ثقة المفسرين بما ورد في هذا الباب انهم لم يقنعوا بما ورد بل اتبعوا

(30) أحمد أمين: فجر الاسلام ص 241

(31) رشيد العبيدي: دراسات في التفسير والحديث ص 30 مطبعة المعارف بغداد 1970.

(32) بدر الدين السيوطي: البرهان في علوم القرآن ج 2 ص 172 الهيئة المصرية العامة للكتاب

1975

(33) صبحي الصالح: مباحث في علوم القرآن ص 291 ط 7 دار العلم للملايين بيروت 1972

ذلك بما أداه إليه اجتهادهم⁽³⁴⁾ وبمرور الزمن تضخم هذا التفسير المنقول فدخل فيه أيضا ما نقل عن الصحابة والتابعين ، وهكذا حيث كانت كتب التفسير المؤلفة في العصور الأولى مقصورة على هذا النحو من التفسير . وقد تعرض التفسير بالمأثور إلى نقد شديد لأن الصحيح من الروايات قد اختلط بغير الصحيح ، ولزنادقة اليهود والفرس نشاط لا يحمله أحد في الدس على الاسلام وتشويه تعاليمه . فكان على المفسر بالمأثور ان يدقق في تعبيره وفي روايته ويحتاط كثيرا في ذكر الأسانيد⁽³⁵⁾ .

أما المصدر الثاني من مصادر التفسير فهو (الاجتهاد) أو (الرأي) ويشترط في المفسر أن يعرف الألفاظ العربية وكلام العرب ومناحيهم في القول والوقوف على ما ورد في المثل العربي والشعر العربي ونحوه . وعلى أسباب نزول الآية ويفسرها حسب ما أداه إليه اجتهاده ، وبهذه الطريقة كان الكثير من الصحابة يفسر الآيات من القرآن ، وقد انقسم الصحابة والتابعين في ذلك قسمين : فمنهم من تورع أن يفسر القرآن برأيه واجتهاده ومنهم من يرى ذلك ويستبيحه بل يرى كتمان ما وصل إليه اجتهاده كتمانا للعلم .

وعلى هذا فقد كره المفسرون وامثالهم أن يتعرضوا للتفسير من لم يستكمل شروط العلم كافة ، كما كرهوا ان يعتنق الرجل مذهباً من المذاهب الدينية كالأعتزال أو الارزاء أو التشيع أو الخوارج أو الصوفية ، ويجعل ذلك أصلاً يفسر القرآن على مقتضاه ، والواجب أن تكون العقيدة تابعة للقرآن لا أن يكون القرآن تابعا للعقيدة⁽³⁶⁾ .

وهذا الاجتهاد هو الذي سبب الاختلاف بين الصحابة والتابعين في تفسيرهم لالفاظ القرآن وآياته اختلافا واضحا نكاد نلمحه في كل صفحة من صفحات تفسير الطبري .

ولقد لعب المفسرون دورا كبيرا في الفكر الاسلامي ، فاشتهر عدد قليل من الصحابة بالقول في تفسير القرآن ، وأكثر من روي عنه منهم علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وأبي بن كعب وأقل من هؤلاء زيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعري ، وعبد الله بن الزبير ، وسنقصر قولنا في الأربعة الأولين لأنهم أكثر من غذى التفسير في مدارس الأمصار المختلفة والصفات العامة التي مكنت هؤلاء الأربعة الأولين من التبحر في التفسير قوتهم في اللغة العربية ومخاطبتهم للنبي مكنتهم من معرفة الحوادث التي نزلت فيها آيات القرآن ، وعدم تحرجهم من أن يجتهدوا ويقرروا ما أداه إليه اجتهادهم ،

(34) أحمد أمين : فجر الاسلام ص 245

(35) صبحي الصالح : مباحث في علوم القرآن ص 291

(36) أحمد أمين : فجر الاسلام ص 247

ولو رتبنا هؤلاء الأربعة حسب كثرة ما روي عنهم لكان ابن عباس أولهم ثم علي بن أبي طالب ، ثم عبد الله بن مسعود ثم أبي بن كعب . ويظهر أنه وضع علي ابن عباس وعلي بن أبي طالب أكثر مما وضع علي غيرهما ، ولذلك أسباب : أهمها أن عليا وابن عباس من بيت النبوة ، والوضع عليهما يكسب الموضوع ثقة وتقديسا لا يسلبها الاسناد إلى غيرهما . ومنها أنه كان لعلي من الشيعة ما لم يكن لغيره ، فأخذوا يضعون وينسبون ما يظنون أنه يعلي من قدره العلمي ، وابن عباس كان من نسله الخلفاء العباسيون يتقرب اليهم بكثرة المروى عن جدهم ، وانظر ما روي ابن أبي جمهرة عن علي بن أبي طالب انه قال : (لو شئت ان أوقر سبعين بعيرا من تفسير أم القرآن (الفاتحة) لفعلت) وقد روي عن ابن عباس فيها قول أو أقوال ، واضطرت النقاد ان يتبعوا سلسلة الرواة فيعدلون بعضها ويجرحون بعضا⁽³⁷⁾ .

وبعد عصر الصحابة اشتهر بعض التابعين في الرواية عن ذكرنا من الصحابة مجاهد ، وعطاء بن أبي رباح ، وعكرمة مولى ابن عباس وبنعيد بن جبير ، وهؤلاء كانوا من تلاميذه في مكة ، واشتهر من تلاميذ عبد الله بن سعود في التفسير في العراق مسرور الاجدع عربي من همدان يسكن الكوفة ، وكان شريح القاضي يستشير في معضلات المسائل ، واشتهر كذلك قتادة بن دعامة السدوسي ، وهو عربي يسكن البصرة وشهرته في التفسير جاءت من تضلعه في اللغة العربية والشعر العربي وأيام العرب ، إلا أن بعضهم كان يتحرج من الرواية عنه لخوضه في القضاء والقدر⁽³⁸⁾ .

وفي هذا العصر تضخم التفسير بالاسرائيليات والنصرانيات لكثرة من دخل منهم في الاسلام ، وميل النفوس لسماع التفاصيل عما يشير اليه القرآن من أحداث يهودية ونصرانية ، والمتتبع في تفسير ابن جرير الطبري يجد كثيرا من الآيات التي وردت عن بني اسرائيل فإذا بطل الرواية فيها وهب بن منبه ، والمتتبع لكثير من تفسير الآيات التي وردت عن النصارى فإن أكثر ما يرويه الطبري عن ابن جريج وهو نصراني من أصل رومي فكان يضع الحديث⁽³⁹⁾ .

وكانت تفاسير الباطنية أشد بعدا من النسق القرآني من تفاسير أصحاب المذاهب فليس

(37) انظر أحمد أمين : فجر الاسلام ص 249

(38) المصدر السابق : ص 252

(39) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج 1 ص 405

فيها إلا التأويلات المخالفة لأصول الشرع وقواعد اللغة⁽⁴⁰⁾. فهم يقتصرون في تفاسيرهم على الأخذ بباطن القرآن ويهملون ظاهره ، وبعبارة أخرى ان الباطنية تبتعد عن ظاهر القرآن وتعمق في استلهاهم معان غير ظاهرة .

ولما جاء العصر العباسي أصبح كل يفسر القرآن على مذهبه في الجبر والاختيار والاعتزال وهكذا ، ولما عظمت الحركة الفقهية رأينا المفسرين من الفقهاء يتعرضون للآيات يذكرون ما يستنبط منها من الأحكام وقل مثل ذلك في قواعد النحو والبلاغة وقواعد الأخلاق .

الحديث

يراد بالحديث أو السنة كل ما ورد عن الرسول ﷺ من قول أو فعل أو تقرير ، وبعد عصر الرسول ضم إلى الحديث كل ما ورد عن الصحابة لانهم كانوا يعاشرون النبي ويسمعون قوله ويشاهدون فعله ويحدثون بما رأوا وما سمعوا ، وجاء التابعون بعد فعاشروا الصحابة وسمعوا منهم ورأوا ما فعلوا ، فكانوا من الاخباريين عن رسول الله وصحابته . يأتي الحديث بالمرتبة الثانية بعد القرآن ، فكثير من آيات القرآن مجملة أو مطلقة أو عامة فجاء قول رسول الله أو عمله فينبها أو قيدها أو خصصها⁽⁴¹⁾ وما تعرض الرسول من حوادث يقضي فيها واستلة يجيب عنها ، ومبادلة وأخذ وعطاء ، وتصرف في الشؤون السلمية والحربية كل هذه كانت أحيانا ينزل فيها قرآن ، وأحيانا لا ينزل فاقترضى ذلك جميعه العناية بالحديث .

لم يدون الحديث في عهد النبي كما دون القرآن ، فقد اتخذ رسول الله كتابة للوحي يكتبون آيات القرآن عند نزولها ، ولكنه لم يتخذ كتابة يكتبون ما ينطق به في غير القرآن ، بل رويت أحاديث تنهى عن تدوين الحديث كقول النبي (لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرآن فليمحه وحدثوا عني فلا حرج ، ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده يوم القيامة من النار) .

لم يكن تدوين الحديث شائعا في عصر الرسول ، وان هناك ما يدل على وجود صحف من الحديث في عهد الرسول .

وبعد وفاة الرسول كان كتاب مدون هو القرآن ، وأحاديث غير مدونة تروى عن

(40) صبحي الصالح : مباحث في علوم القرآن ص 297

(41) أحمد أمين : فجر الاسلام ص 255

رسول الله ، وكانت تروى من الذاكرة لا من صحيفة . فكان إذا عرض حادث ليس له حكم في القرآن ، وعرف بعض الصحابة انه حدث نظيره لرسول الله ، وكان له فيه حكم حدث بذلك الحديث .

لقد كره بعض الصحابة كثرة الرواية عن الرسول خشية الكذب عليه وخشية أن يصددهم ذلك عن القرآن ، وروى عن عمر بن الخطاب انه كان يطلب بالبينة على من يذكر حديثا عن الرسول ، وروى عن علي بن أبي طالب أنه كان يحلف من حدثه بجديث عن الرسول⁽⁴²⁾ .

وقد نتج عن عدم تدوين الحديث واكتفائهم بالاعتماد على الذاكرة وصعوبة حصر ما قال رسول الله أو فعل في مدة ثلاثة وعشرين عاما من بدء الوحي إلى وفاته ﷺ ان استباح قوم لانفسهم وضع الحديث ونسبته كذبا إلى رسول الله ، ويظهر أن هذا الوضع حدث حتى في عهد الرسول فحديث (من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار) يغلب على الظن أنه انما قيل : لحادثة حدثت زور فيها على الرسول . وبعد وفاة الرسول كان الكذب عليه أسهل ، ولما فتحت الفتوح ودخل في الاسلام من لا يحصى كثرة من الأمم من هم من فارسي ورومي وبربري وتركبي وغيرهم ، وكان هؤلاء من لم يتجاوز ايمانهم حناجرهم . فلما أخذ عبد الكريم بن أبي العوجاء الوضع لتضرب عنقه قال : لقد وضعت فيكم أربعة آلاف حديث أحرم فيها وأحل⁽⁴³⁾ وتلك الأحاديث التي وضعها كلها ضلالات في التشبيه والتعطيل وفي بعضها تغيير لأحكام الشريعة⁽⁴⁴⁾ .

ويظهر أن بعض الوضعيين لم يكونوا يرون الوضع عن رسول الله نقیصة ولا معرة دينية ، وقد جوز قوم وضع الحديث في الترغيب والترهيب فقال النووي : وقد سلك مسلكهم بعض الجهلة المتسمين بسمة الزهاد وترغيبا في الخير في زعمهم الباطل⁽⁴⁵⁾ .

ولعل من الأمور التي حملت البعض على الوضع هي الخصومات السياسية بين علي ومعاوية ثم بين الامويين والعباسيين ، ثم بين العباسيين والعلويين ، ويتصل بهذا النحو أحاديث وضعها الوضعيون في تفضيل القبائل العربية ، ذلك ان هذه القبائل كانت تتنازع الرياسة والفخر والشرف ، فوجدوا في الأحاديث بابا يدخلون منه إلى المفاخرة كالذي

(42) المصدر السابق : ص 258

(43) أحمد أمين : فجر الاسلام ص 259

(44) البغدادي : الفرق بين الفرق ص 256

(45) النووي على شرح مسلم ج 1 ص 32

وجدوه في الشعر ، فكم من الأحاديث وضعت في فضل قريش والانصار وغيرهم ، وكم من حديث وضع في تفضيل العرب على العجم والروم ، فقابلها هؤلاء بوضع أحاديث في فضل العجم والروم⁽⁴⁶⁾ .

ولعبت الخلافات الكلامية والفقهية دورا كبيرا في الوضع ، فلما اختلف علماء الكلام في القدر والجبر والاختيار ، أجاز قوم لأنفسهم أن يؤيدوا مذهبهم بأحاديث يضعونها ينصون فيها على اسم الفرقة المناهضة لهم بل واسم رئيسها ، وكذلك في الفقه ، فلا تكاد تجد فرعا فقهيا مختلفا فيه إلا وحديث يؤيد هذا ، وحديث يؤيد ذاك ، ومثل ذلك نرى أحاديث كثيرة موضوعة في كتب الاخلاق والتصوف ، كما وضع القصاص أحاديث كثيرة أيضا ، ووضعت أحاديث كثيرة في فضائل القرآن وسوره وآياته ، وادعى واضعو الأحاديث انهم أرادوا بذلك ابتغاء وجه الله عندما وجدوا الناس قد اعرضوا عن حفظ القرآن⁽⁴⁷⁾ .

ويرى البعض ان من أهم أسباب الوضع تفاني الناس في أنهم لا يقبلون من العلم الا على من اتصل بالكتاب والسنة . وماعدا ذلك فليس له قيمة كبيرة ، فحمل ذلك كثيرا من الناس ان يصبغوا هذه الأشياء كلها بصبغة دينية حتى يقبلوا عليها ، فوجدوا الحديث هو الباب الوحيد المفتوح على مصراعيه ، فدخلوا منه على الناس ولم يتقوا الله فيما وضعوا ، فكان من ذلك أن نرى في الحديث الحكم الفقهية والحكمة الهندية والفلسفة الزرادشتية والموعظة اليهودية والنصرانية⁽⁴⁸⁾ .

روع وضع الحديث عن رسول الله جماعة من العلماء فنهضوا لتنقية الحديث مما ألم به وسلكوا في ذلك جملة مسالك: منها انهم اهتموا باسناد الحديث أي اعتنوا برواة الحديث ليتمكنوا بذلك من معرفة قيمة المحدث صدقا أو كذبا ، وليعرفوا هل المحدث ينتسب إلى بدعة وضع الحديث ترويجا لها ، فجاء في مقدمة صحيح مسلم عن ابن سيرين قال : لم يكونوا يسألون عن الاسناد ، فلما وقعت الفتنة قالوا : سمو لنا رجالكم فينظر إلى أهل السنة ، فيؤخذ حديثهم ، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم . ثم أخذوا يشرحون الرجال فيجرحون بعضا ويعدلون بعضا ، والزموا أنفسهم الكشف عن معاييب رواة الحديث وناقلي الأخبار ، واهتموا كذلك في المتن كأساس مهم في النقد ، ويظهر أنه بعد

(46) انظر الأحاديث في هذا الباب في الجزء الثالث من (تيسير الأصول) .

(47) أحمد أمين : فجر الاسلام ص 263

(48) المصدر السابق : ص 264

أن استقرت الآراء في العقائد ، وعرفت قيمة أكثر الرواة ورواياتهم في القرنين الثاني والثالث الهجريين اتجه الاهتمام إلى المتن ، وخصوصا إلى تلك الأحاديث التي تتعلق بموضوع واحد ، والتي يظهر فيها التناقض فوقف نقاد الحديث أحد موقفين : اما نبذ الحديث ان ناقض الآراء السائدة في الأمة ، أو التوفيق بين الحديثين المتناقضين في الظاهر ، ويميز المحدثون ثلاثة أصناف من الحديث (الصحيح) وهو الحديث المسند ، ولا يوجد في متن تناقض و(الحسن) وهو الحديث الذي لا يخلو رجال سنده من مستور ، ويكون متن الحديث قد عرف بأنه روي مثله أو نحوه و(الضعيف) وهو الحديث الذي يوجد بين رواته من لا يوثق بهم وبين متنه تناقض .

وقد بدأ الكلام في الجرح والتعديل منذ عهد الصحابة ، وكان للاختلاف المذهبي أثر في التعديل والتجريح ، وقد وضع العلماء للجرح والتعديل قواعد ، كما عنوا بنقد الاسناد أكثر مما عنوا بنقد المتن ، فقل ان نظفر منهم بنقد من ناحيته ان ما نسب إلى النبي لا يتفق والظروف التي قيلت فيه ، أو ان الحوادث التاريخية الثابتة تناقضه ، أو ان عبارة الحديث نوع من التعبير الفلسفي يخالف المؤلف في تعبير النبي ، ولم نظفر منهم في هذا الباب عشر معشار ما عنوا به من جرح الرجال وتعديلهم حتى نرى ان البخاري ، نفسه على جليل قدره ودقيق بحثه يثبت أحاديث دلت الحوادث الزمنية والمشاهدة التجريبية على أنها غير صحيحة لاقتصاره على نقد الرجال⁽⁴⁹⁾ .

كذلك قسموا الحديث بحسب قوته والأخذ به إلى أقسام وسموا كل نوع اسما ، فقسموه إلى متواتر وآحاد ، فالمتواتر ما رواه جماعة يؤمن من تواطئهم على الكذب ، وهذا يفيد العلم ، واما أحاديث الآحاد : فهي غير المتواترة ، وهي لا تفيد العلم عند أكثر الأصوليين والفقهاء وانما يجوز العمل بها عند ترجيح صدقها .

ولا نطيل هنا بذكر تفاصيلها واسنادها ، فخلال القرن الأول الهجري لم يعهد الخلفاء من الصحابة أو كبار التابعين بجمع ما يستوثق مما في أيدي الناس من الحديث ويكتبوه في كتاب ويرسلوا نسخا منه إلى الامصار كما فعلوا في المصحف ، ويمنعوا الناس من أن يتحدثوا بغير ما فيه ، ويظهر أن هذه الفكرة (جمع الحديث) عرضت لعمر بن الخطاب فقد روى الزهري عن عروة بن الزبير أن عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنن واستشار فيه أصحاب رسول الله فأشار عليهم عامتهم بذلك ، فلبث شهرا يستخير الله في ذلك

(49) أحمد أمين : فجر الاسلام ص 267

شاكاً فيه ، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له ، فقال : (اني كنت ذكرت لكم في كتابة السنن ما قد علمتم ثم تذكرت فإذا الناس من أهل الكتاب من قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله واني والله لا ألبس كتاب الله بشيء) .

وعرضت فكرة جمع الحديث بعد ذلك لعمر بن عبد العزيز فكتب يستحث العلماء ولكنه عوجل قبل أن يحقق جمعه ، ولما جاء أبو جعفر المنصور عاودته هذه الفكرة وعرض الأمر على مالك بن أنس فقال له : يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا ، فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل وسمعوا أحاديث وأخذ كل قوم بما سبق إليهم ودانوا به فدع الناس وما اختار أهل كل بلد لأنفسهم⁽⁵⁰⁾ .

ويبدو أن المنصور كان متجهاً إلى أن يكون في كتب الامام مالك أساس لقانون اسلامي واحد عام ليحكم به الدولة الاسلامية ويتخذ صيغة رسمية ويؤكد هذا الاتجاه صاحب كتاب الحلية عن مالك بن أنس ، شاورني الرشيد في أن يعلق الموطأ في الكعبة ويحمل الناس على ما فيه فقلت لا تفعل فإن أصحاب رسول الله اختلفوا في الفروع وتفرقوا في البلدان وكل مصيب⁽⁵¹⁾ .

واستمر الحديث طيلة القرن الأول الهجري يروى شفاهاً وحفظاً حتى كان مطلع القرن الثاني للهجرة حين بدأت جماعة في الامصار المختلفة تجمع الحديث وبشكل تروى للاحاديث التي جمعت عنده فيذكر (أن أول من جمع ذلك الربيع بن صبيح (ت 160هـ) وسعيد بن أبي عروبة (سنة 156هـ) إلى ان انتهى الأمر إلى كبار الطبقة الثالثة وصنف الامام مالك الموطأ بالمدينة وعبد الملك بن جريج بمكة والاوزاعي بالشام وسفيان الثوري بالكوفة وحامد بن مسلمة بن دينار بالبصرة ، ثم تلاهم كثير من الأئمة في التصنيف كل على حسب ما سنع له وانتهى إليه علمه)⁽⁵²⁾ .

وقد رتب كتب الحديث اما حسب أبواب الفقه كالموطأ والبخاري ومسلم أو ما رتب حسب الرواة كمسند أحمد بن حنبل وغيرهم .

لقد كان للحديث الصحيح أو الموضوع أكبر الأثر في نشر الثقافة في العالم الاسلامي وفي تغذية الفكر العربي بشكل خاص فقد أقبل الناس عليه يتدارسونه فازدهرت الحركة

(50) المصدر السابق ص 271

(51) أحمد أمين : فجر الاسلام ص 272

(52) ابن حجر العسقلاني شرح البخاري ج 1 ص 206

الفكرية والعلمية في الامصار الاسلامية . وكل علماء الصحابة والتابعين كانت شهرتهم العلمية مؤسّسة على التفسير والحديث . وسبب حرص الناس على رواية الحديث رحلة العلماء إلى أقاصي الدولة العربية وطافوا بلدانها ليأخذوا بعضهم من بعض فكان من ذلك تبدل الآراء العلمية والافكار ووقوف علماء الامصار كل على ما عند الآخرين حتّى لتكاد الحركة العلمية تتوحد . وعن طريق الرحلة في طلب الحديث انتشرت أنواع من الثقافات . فالتاريخ الاسلامي بدأ بشكل حديث كالذي نرى في كتب الحديث من مغاز وفضائل أشخاص وفضائل أمم ثم تطور التاريخ إلى ان صار كتباً قائمة بنفسها . فكتب التاريخ الأول كسيرة ابن هشام وما يروى ابن جرير عن ابن اسحق والبلاذري في فتوح البلدان يكاد يكون نمطها وأسلوبها نمط حديث وأسلوب حديث ، وقصص الانبياء وما اليهم جاءت في القرآن وتوسع فيها الحديث ثم توسع القصص فكان القصص والحكم وقواعد الأخلاق وشيء من فلسفة اليونان والهند وضعت في الحديث وضعا وانتشرت في الناس على انها دين . فكان لها من الأثر في الناس ما ليس للتعالم الدنيوية ، وفوق ذلك كان الحديث أوسع منبع للتشريع في العبادات والمسائل الدينية والجنائية . فكان الحديث أوسع مادة للعلم وللثقافة في ذلك العصر⁽⁵³⁾ .

التشريع (الفقه)

كان عرب الجزيرة العربية منهم من سكن الحواضر والمدن ومنهم بدوا وكانت حكومات المدن أو الملوك ورؤساء القبائل تقوم زعامتهم على أسس قبلية وقد مكنتهم السيادة من حكم القبيلة أو المدينة وهو الذي يستمد حكمه في الشؤون الخارجية والداخلية من الرأي العام لقبيلته وليس بما يملك من جيش أو نحو ذلك والعلاقة التي تربط بينهم هي رابطة الدم والقرابة والمصير الواحد . ولذا وقع عبء حماية القبيلة أو الدولة على جميع الأفراد .

ولم يكن للعرب تشريع أو قانون موحد يحكمهم بل كان لكل قبيلة عرف وتقاليد وكان للقبيلة حاكم يحكم بين المتنازعين وحسب تقاليدهم وتجاربهم وعرفهم . ولو رجعنا إلى كتب الأدب لرأينا أن العرب كانوا تارة يحتكمون إلى شيخ القبيلة أو الأمير وتارة إلى الكاهن وأخرى إلى من عرف بالرأي السديد واصالة الحكم ، ولم يكن يحكم هؤلاء بقانون مدون ولا قواعد معروفة وانما يرجعون إلى عرفهم وتقاليدهم التي كونوها من خلال تجاربهم ومعتقداتهم .

ولم يكن لهذا القانون القائم على العرف والتقاليد احكاما جزائية كما لم تكن هناك سلطة تنفيذية يلزم المتخاصمون الخضوع اليها في احتكامهم أو انزال العقاب بالجاني وانما كانت قرارات المحاكم تنفذ من قبل طرفي النزاع ، فكان الجرم يعتبر دائما حقا خاصا وليس هناك حق عام فإذا عفى المجني عليه لم يكن على الجاني أي عقاب .

والفكرة الأساسية في القانون الجنائي هي القصاص أو الانتقام فليس هناك أثر للعقاب الذي يستهدف الاصلاح وانما كان يجري على مبدأ العين بالعين والسن بالسن ، وفي حالة القتل فإن القبيلة تحلعه وتقضيه عنها فيغادرها ويصبح خليعا أو طريدا⁽⁵⁴⁾ .

ويظهر أن مكة قبيل الاسلام بلغت شيئا من الرقي في نظامها الحكومي ومنه القضاء كما يدل على ذلك من توزيع الأعمال ومنها ما يتعلق بالقضاء فقد عهد به إلى أبي بكر قبل الاسلام فقد ذكر أنه عهد إليه بالاشناق وهي الديات والمغارم ، وبدلنا على ذلك أيضا إيجاد حلف الفضول الذي تحالفت فيه قبائل قريش على ألا يظلم بمكة غريب ولا قريب ولا حر ولا عبد الا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه ويؤدوا اليه مظلمته من أنفسهم ومن غيرهم⁽⁵⁵⁾ .

وقد تعرض الاسلام لقانون الحرب وبعبارة أخرى لعرف العرب وتقاليدهم فاقرب بعضا وانكر بعضا ، فعدل الاسلام بعض شرائع العرب في الحج والزواج والطلاق والمهر والخلع ، والايلاء والعقوبات التنبية وغيرها من النظم القضائية السائدة .

لقد ظهر الرسول بمكة وأقام بها نحو ثلاث عشرة سنة ثم أقام بالمدينة نحو عشر سنين وخلالها كان ينزل القرآن بالأحكام وتصدر عن الرسول الأحاديث مبينة لما يعرض من الحوادث فأصبح القرآن والحديث أهم مصادر التشريع الاسلامي (الفقه) وكان دورهما كبيرا في الفكر الاسلامي .

فتزل القرآن منجما في نحو ثلاث وعشرين سنة منه ما نزل بمكة ويبلغ نحو ثلثي القرآن ومنه ما نزل بالمدينة ويبلغ نحو الثلث .

والآيات المكية لا تكاد تتعرض لشيء من التشريع في المسائل المدنية والاحوال الشخصية والجنائية ، انما تقتصر على بيان أصول الدين والدعوة اليها والأمر بمكارم

(54) صالح أحمد العلي : محاضرات في تاريخ العرب ص 162 طبع جامعة الموصل 1981 .

(55) أحمد أمين : فجر الاسلام ص 278

الأخلاق والنهي عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن والقيام بالعبادات من صلاة وصوم . أما التشريع في الأمور المدنية من بيع واجارة ونحو ذلك . والجناية من قتل وسرقة والاحوال الشخصية من زواج وطلاق فكل ذلك شرع بعد الهجرة إلى المدينة . وكان التشريع أكثر ما يكون بمناسبة حوادث تحدث ولو وقفنا على تاريخ نزول آيات الأحكام بها وتبعنا تسلسل الايات تبعا لتسلسل الحوادث لفهمنا أصدق فهم حالة المسلمين الاجتماعية وتدرجها في الرقي الفكري والتشريعي⁽⁵⁶⁾ .

وهناك نوع آخر من التشريع كان في عهد الرسول وهو التشريع بالسنة ويختلف عن الكتاب في ان القرآن الفاظه ومعانيه بوحى من الله ... اما السنة (الحديث) فألفاظها من عند الرسول ، فالسنة بينت كثيرا من آيات القرآن كالتي وردت في آيات الصلاة والزكاة وكذلك الحوادث التي قضى الرسول فيها بالحديث لا بالقرآن فكان قضاؤه في ذلك تشريعا ، فالرسول كان يجتهد برأيه حيث لا يكون وحى⁽⁵⁷⁾ .

وحين أرسل الرسول معاذ بن جبل قاضيا إلى اليمن قال له : كيف تقضي إذا عرض عليك قضاء ؟ قال : اقضي بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد في كتاب الله ، قال : فيسنة رسول الله ، قال : فإن لم تجد في سنة ولا في كتاب الله ؟ قال : اجتهد رأيي ولا آلو : قال : معاذ بن جبل فضرب رسول الله على صدري ثم قال : الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضي رسول الله⁽⁵⁸⁾ وفي نفس المعنى يأتي في وصية عمر بن الخطاب لشريح القاضي حين ولاه قضاء الكوفة (ما تبين لك في كتاب الله فلا تسأل عنه أحدا ، وما لم يتبين لك في السنة فاجتهد فيه رأيك ، واستشر أهل العلم والصلاح)⁽⁵⁹⁾ .

فأصبح القرآن والسنة هما مصدر التشريع وأساس القانون الاسلامي كما أن الاجتهاد مصدر آخر من مصادر التشريع فيما لم يرد فيه نص في القرآن والحديث .

وأصبح للاجتهاد منزلة كبيرة في الفقه الاسلامي فقد اعترف أئمة المسلمين أن المجتهدين من الأئمة معصومون من الخطأ إذا اتفقت كلمتهم على حكم مستفاد من كتاب أو سنة أو

(56) أحمد أمين : فجر الاسلام ص 283

(57) المصدر السابق : ص 286

(58) عمر عبد الله : أحكام الشريعة الاسلامية في الأحوال الشخصية ص 9 مطبعة الاسكندرية

1958

(59) نفس المصدر السابق ص 10

قياس فثبت لهم أصل رابع هو الاجماع فصارت أدلة الأحكام الفقهية أربعة الكتاب ، السنة ، القياس ، الاجماع⁽⁶⁰⁾ .

والمتبع لما روي عن العصر الأول في (الرأي) يرى أنهم كانوا يستعملون هذه الكلمة بالمعنى الذي نفهمه الان من كلمة (العدالة) وبعبارة أخرى ما يرشد اليه الفكر السليم مما في الأمر من عدل وظلم وفسره ابن القيم الجوزية (بانه ما يراه القلب بعد فكر وتأمل وطلب لمعرفة وجه الصواب)⁽⁶¹⁾ .

ولعل عمر بن الخطاب كان أظهر الصحابة في استعمال الرأي فقد روي عنه الشيء الكثير لأن عمر قد واجه من الأمور المحتاجة إلى التشريع ما لم يواجهه خليفة قبله ولا بعده فهو الذي على يده حررت العراق والشام ومصر وفارس ومصرت الامصار وخضعت الأمم من فرس وروم لحكم الاسلام وهي حالة لم يحدث بعد نظيرها فكان لعمر من التشريع في المسائل الاقتصادية والسياسية والمالية والاجتماعية ما كان أصلاً للفقهاء من بعده ولذلك يقول الفقهاء (انه العمدة في هذا الباب - الرأي)⁽⁶²⁾ .

وقد أخذ بهذا الاتجاه كثير من كبار الصحابة والتابعين في القضايا التي لا يوجد فيها نص في القرآن أو السنة لدرجة أصبح هناك مدرسة أو مذهب حمل لواءها عمر بن الخطاب واشهر من سار على طريقته عبد الله بن مسعود في العراق وقد توجت مدرسة الرأي في العراق بابي حنيفة الذي أخذ عن حماد بن أبي سليمان وهو أخذ عن ابراهيم النخعي وابراهيم أخذ عن علقمة بن قيس وهو تلميذ عبد الله بن مسعود ومنذ ذلك الحين أخذت مدرسة العراق تشتهر بالرأي والقياس .

ازدهرت مدرسة الرأي في العراق منذ القرن الأول والثاني للهجرة حتى كانوا ينسبون اليها فسموا (ربيعة الرأي) وهو من أكبر التابعين وشيخ الامام مالك وكان كثير من التابعين وتابعيهم من هذه المدرسة كالحسن البصري ، وكان العراق أكبر موطن لها ويرجع ذلك إلى أسباب ثلاثة .

الأول : ما ذكر من تأثير عبد الله بن مسعود فيهم لميله إلى الرأي ومشاركته استاذة عمر بن الخطاب .

(60) محمد الخضرمي : أصول الفقه ص 3 ط 3 مطبعة الاشتقاق مصر 1938

(61) ابن القيم الجوزية ، اعلام الموقعين ج 1 ص 87

(62) أحمد أمين ، فجر الاسلام ص 292

الثاني : ان ما وصل من الحديث للعراق قليل وكان أكثر رواة الحديث في الحجاز لانه موطن الرسول وكبار الصحابة .

والثالث : ان العراق أكثر تأثراً بالمدينة من الحجاز والمدينة تضع تحت عين المشرع جزئيات كثيرة تحتاج إلى التشريع لا يقاس بها الاقاليم التي حافظت على النظم القبلية⁽⁶³⁾ .

كان يناهض هذه المدرسة مدرسة الحديث (أهل الحديث) ولهذه المدرسة أصول في الصحابة كالعباس والزبير وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص . ومن مميزات هذه المدرسة الاعتداد بالحديث وكرهيتهم الشديدة للرأي لأن المصدر عندهم وهو الحديث بحدود وهم يعيرون على العراقيين أخذهم بالرأي والفروض . وكذلك قبولهم بالحديث حتى الضعيف منه وتساهلهم في شروطه وتقديمهم ذلك على الرأي كالذي روي عن أحمد بن حنبل ، يسأل أهل الحديث ولا يسأل أصحاب الرأي . ضعيف الحديث أقوى من صاحب الرأي⁽⁶⁴⁾ .

وكانت هذه المدرسة سببا غير مباشر لوضع الحديث فقد رأى قوم لا يتحرون الصدق ان هناك مسائل لا تعد لم يرد فيها نص ورأوا اعلام مدرستهم لا تقدم له الرأي تحل به المشاكل ، فوضعوا الأحاديث الكثيرة يغطون بها هذا الموقف فقيل ، فقد جمع الامام مالك في الموطأ نحو من عشرة آلاف حديث فلم يزل ينظر فيه كل سنة ويسقط منه حتى بقي هذا ولو بقي قليلا لاسقطه كله⁽⁶⁵⁾ .

وتغالى أصحاب الحديث كما تغالى أصحاب الرأي حتى قال بعضهم : ان السنة حاكمة على الكتاب وليس الكتاب حاكما على السنة ومن كان في العصر الثاني من يقول : إن السنة تنسخ الكتاب⁽⁶⁶⁾ .

واشتد النزاع بين المدرستين ووجه كل فريق للآخر ودفعت ببعضهم إلى وضع الأحاديث لتأييد مدرستهم فروت مدرسة الحديث أن الرسول ﷺ قال : (يرسل رجل منكم متكئا على أريكته يحدث بحديث عني فيقول بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه

(63) انظر المصدر السابق ص 296

(64) ابن القيم الجوزية : اعلام المومنين ج 1 ص 88

(65) القاضي ابن فرحون : الديباج المذهب في تراجم المالكية ص 25

(66) أحمد أمين : فجر الاسلام ص 300

من خلال استحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه الا وان ما حرم رسول الله مثل الذي حرم الله⁽⁶⁷⁾ وروى مدرسة الرأي أن الرسول ﷺ قال : (ما أتاكم عني فاعرضوه على كتاب الله فان وافق كتاب الله فانا قلت وان خالف كتاب الله فلم أقله انا وكيف أخالف كتاب الله وبه هداني الله)⁽⁶⁸⁾.

والواقع أن الصحابة والتابعين لم يكونوا متمسكين كلياً بالرأي فقد روي عن أبي بكر أنه عمل بالرأي وذم الرأي ؛ وعن عمر في العمل بالرأي وذم الرأي ، وابن مسعود كذلك⁽⁶⁹⁾.

وقد اجتهد بعض الفقهاء والعلماء أنفسهم في التوفيق بين هذه الأقوال المتناقضة ورأوا أن نوعاً من الرأي محمود ونوعاً منه مذموم والذي نراه ان هذه الأقوال المتناقضة إنما هي من أثر المدارس المتنازعة ومن وضع من اندس في كل مدرسة ولم يبرح الحق ولم يخش الله⁽⁷⁰⁾ وكونوا مدرسة ثالثة بين المدرستين لا تهمل الرأي وهي مع ذلك غنيت بالحديث ولا تعمل الرأي الا بشروط والا عندما لم يكن نص في المسألة ومن أعلام هذه المدرسة الامام مالك ثم الامام الشافعي وقد ارتقى البحث في الرأي ونظم ووضعت له قواعد وشروط وسمي بالقياس وحصر الرأي بعد وضع هذه القواعد والنظم في دائرة ضيقة لا تتعدى غالباً تشبيه ما لم ينص عليه لعله تجمعها . وهذه المدارس على اختلافها رقت التشريع والفكر الاسلامي رقياً بينا بما بحثت واستنبطت من الأحاديث الموضوعية نفسها كان لها فضل في التشريع فانها لم توضع اعتباطاً ولا كانت مجرد قول يقال ، انما كانت في الغالب نتيجة تفكير كبير وبحث واجتهاد وقد أغنت الفكر العربي الاسلامي .

د. توفيق سلطان البوزيكي

(67) الشاطبي : الموافقات ج 4 ص 7

(68) المصدر السابق ج 4 ص 9

(69) ابن القيم : اعلام الموقعين ج 1 ص 88

(70) أحمد أمين : فجر الاسلام ص 300 .

المصادر والمراجع

- 1 - ابن حجر العسقلاني شرح البخاري
- 2 - ابن خلدون المقدمة
- 3 - ابن خلكان وفيات الاعيان
- 4 - ابن الديبع تيسير الوصول
- 5 - ابن القيم الجوزية اعلام الموقعين
- 6 - ابن النديم الفهرست
- 7 - ابن هشام السيرة النبوية
- 8 - أحمد أمين فجر الاسلام
- 9 - ضحى الاسلام
- 10 - الاصفهاني الأغاني
- 11 - البغدادي الفرق بين الفرق
- 12 - بدر الدين السيوطي البرهان في علوم القرآن
- 13 - الجاحظ البيان والتبيين
- 14 - رشيد العبيدي دراسات في التفسير والحديث
- 15 - الشاطبي الموافقات
- 16 - صبحي الصالح مباحث في علوم القرآن
- 17 - صالح العلي محاضرات في تاريخ العرب
- 18 - مراكز الحركة الفكرية في صدر الاسلام (بحث
بمجلة المجمع العلمي العراقي ج 3 م 31 تموز
1980م)
- 19 - عمر عبد الله احكام الشريعة الاسلامية في الأحوال الشخصية
- 20 - القاضي ابن فرحون الديباج المذهب في تراجم المالكية
- 21 - محمد الخضري أصول الفقه
- 22 - اليوزبكي دراسات في النظم العربية والاسلامية
- 23 - التعريب في العصرين الأموي والعباسي ، (بحث
بمجلة آداب الرافدين العدد السابع 1976م).